٣ - فى الفكر الإسلامى

● تمهيد :

نرى لزاماً علينا أن نضع بين يدى القارىء صورة للفكر الإسلامى ، ومراحل سيره مع الزمان ، وما اعتراه - خلال سيره - من استقامة وعوج ، وسناء وقتام .

وفى مقدمة العلاَّمة عبد الرحمن بن خلدون ، دراسة واعية هادية لهذا الموضوع ، توزعت على فصول كتابه الذى لا نظير له فى منهجه وعمقه .

وقد استطاع الدكتور محمد البهى أن يقدِّم لنا خلاصة جيدة لكلام ابن خلدون ، مع شروح وتعقيبات صادقة تضم شتات البحث .

وكان ذلك فى محاضرة ألقاها بدعوة من إدارة الثقافة بوزارة الأوقاف .

ونحن نرى إثبات زُبَد من هذه المحاضرة ، مع إضافات منا وتصرف يسير فى أسلوب العرض ، يقربها من نهج كتابنا هذا ، ومع وفاء كامل بما نقل عن مقدمة ابن خلدون .

قال المحاضر :

« الفرق بين الفكر الإسلامى والإسلام »

« نحن بحاجة إلى توضيح معنى الفكر الإسلامى أولاً :

إنَّ الفكر الإسلامى ليس هو الإسلام ، بل هو صنعة المسلمين العقلية فى سبيل الإسلام ، وبمشورة مبادئه .

والإسلام هو الوحى الإلهى إلى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ . وكتاب هذه الرسالة القرآن الكريم ، وفى حكمه ما انضم إليه من سُنَن ثابتة للرسول توضح ما طُلِب توضيحه منه .

الفكر الإسلامى مستحدَث ، ويخضع لقانون التطور ، ولعوامل الاضمحلال . أما الإسلام فله كتاب ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) .

الفكر الإسلامى غير معصوم عن الخطأ والوهن . والإسلام معصوم عن ذلك كله .

وكتاب الإسلام - لأنه معصوم عن الزيغ والضعف - له قداسة ، وله حق الطاعة المطلقة على المؤمنين به ..

والفكر الإسلامى لا تجب الطاعة له ، إلا بقدر ما فيه من تمثيل لكتاب الله ورسالة السماء ، ذلك أنه - أصالة - يخضع للنقد والمخالفة .

الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامى هو الفرق بين ما لله وما للإنسان .

والصلة بين الأمرين هى الصلة بين شيئين ، أحدهما قام على الآخر ، واستند إليه فى قيامه ووجوده .

ولكن لا على أنه يصوِّره تمام التصوير ، أو يكون معبِّراً عنه تعبير المثل للمثل .

هناك إسلام إذن نزل به الوحى الإلٰهى .

وهناك مسلمون آمنوا بهذا الإسلام ، وترجموا تعاليمه فى سلوكهم ، وحرصوا على استبقائه فى جيلهم ، كما حرصوا على استبقائه لأعقابهم فى الأجيال المتتابعة ، كى تظل على هذا الإسلام ، وعلَّموهم كيف يكونون مؤمنين به ، وكيف يترجمون إيمانهم بالصورة التى ارتضوها ، وكيف يحرصون على بقاء الإسلام فيهم وبقائهم هم أمة مسلمة .

تهيئة هذه الكيفيات ، وتحديد معالمها ، ثم صياغتها فى عباراتها التى تورَث من جيل إلى جيل فى كتبها المتداولة هى : الفكر الإسلامى .

---

(١) فصلت : ٤٢

وهذه الكيفيات - فى تهيئتها ، وتحديد معالمها وصياغتها - تختلف حتما حسب الأفراد والأجيال والظروف المحيطة .

وربما يصل الخلاف فيها إلى درجة الفجوة أو المقابلة .

يقول ابن خلدون فى مقدمته [1] فى الحديث عن علم الفقه : « الفقه معرفة أحكام اللّه تعالى فى أفعال المكلّفين ، بالوجوب ، والحظر ، والندب ، والكراهية ، والإباحة .

وهى متلقاة من الكتاب والسُنّة ، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة .

فإذا استُخرِجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها : فقه .

وكان السَلَف الصالح يستخرجونها من تلك الأدلة ، على اختلاف فيما بينهم .

ولا بد من وقوعه ، ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص ، وهى بلغة العرب .

وفى اقتضاءات ألفاظها الكثير من معانيها ، اختلاف بينهم معروف .

وأيضاً فالسُنّة مختلفة الطرق والثبوت ، وتتعارض - فى الأكثر - أحكامها .

فتحتاج إلى الترجيح ، وهو مختلَف أيضاً .

فالأدلة - من غير النصوص - مختلف فيها .

وأيضاً الوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص .

وما كان منها غير ظاهر فى المنصوص فيُحمل على منصوص لمشابهة بينهما .

وهذه كلها إشارات للخلاف ضرورية الوقوع .

ومن هنا وقع الخلاف بين السَلَف والأئمة من بعدهم .. » .

وهكذا يحكى « ابن خلدون » ما سماه إشارات للخلاف فى جانب واحد من جوانب الفكر الإسلامى ، قد يكون أبعد ما يكون عن مجال الخلاف ، لأنه متصل إتصالاً وثيقاً بالقرآن والسُنّة ، ألا وهو الفقه .

---

(١) طبع المطبعة الأميرية ، رقم ٣.١٨ بمكتبة جامعة القاهرة ، ص ٣٧٢

ولكنه لا يخرج عن كونه فكراً إنسانياً فى دائرة الإسلام .

ودائرة الإسلام ، أو دائرة أى دين آخر ، لا تحول مطلقاً دون اختلاف الفكر الإنسانى .

فما دام فكراً إنسانياً وصنعة عقلية للإنسان ، فالاختلاف والقسوة فيه أحياناً ، ألصق مظاهره وأقربها إليه .

ولهذا الاختلاف فى الفكر الإسلامى لا يعبر رأى مفكر فى اتجاه من اتجاهاته ، ولا رأى حفنة من المفكرين فى اتجاهاتهم المختلفة عن الإسلام تمام التعبير .

وسيظل الإسلام نعمة السماء .

وسيظل الفكر الإسلامى صنعة الإنسان فى أرض المسلمين .

ومَن يجعل من الفكر الإسلامى إسلاماً ، يجعل فى الواقع إسلامات عديدة مختلفة لدين اللّه الواحد .

● استحداث الفكر الإسلامى بعد الإسلام ، وعوامل استحداثه :

ولأن الفكر الإسلامى هو الصنعة العقلية للإنسان المسلم ، كان الفكر الإسلامى فى جملته مستحدَثاً بعد نزول القرآن واتضاح السُنَن .

دفعت إلى استحداثه عوامل ، لا تنحصر فى طبيعة نصوص القرآن ، ولا فى تقويم الحديث من جهة سنده مثلاً .

بل تتجاوز ذلك إلى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، وانتشار المسلمين فى بلاد كان لها طابع ثقافى وحضارة مادية ، وبديهى أن يكون من التقاء الرسالة الجديدة بالمواريث القديمة أخذ ورد وإعجاب وإنكار .. إلى غير ذلك من العوامل التى من شأنها أن تدعو إلى المحاولات الفكرية ، لتبرير أمر - ما - أو رفضه أو تدعو - فى الجملة - إلى الجدل العقلى والمشاقة .

عرف الفكر الإسلامى ، منذ أن ابتدأ المسلمون العرب - وهم حملته الأوائل - يكونون أصحاب علم وصناعة .

ومنذ أن ابتدأت تكون لهم مدارك وأنظار ، بعد أن كان الأمر عندهم وقفاً على المأخذ من الكتاب والسُنَّة .

« إنَّ المِلَّة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة .

وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر اللّه ونواهيه - كان الرجال ينقلونها فى صدورهم .

وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسُنَّة ، بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه .

والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دُفِعوا إليه ، ولا دعتهم إليه حاجة .

وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين .

وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القُرَّاء .

أى الذين يقرأون الكتاب وليسوا أُميين .

لأن الأُمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة بما كانوا عرباً .

فقيل لحملة القرآن يومئذ : قُرَّاء ، إشارة إلى هذا .

فهم قُرَّاء لكتاب اللّه والسُنَّة المأثورة عن رسول اللّه ﷺ .

لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث . الذى هو - فى غالب موارده - تفسير وشرح .

قال ﷺ : « تركت فيكم أمرين ، لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب اللّه وسُنَّتى » .

فلما بَعُدَ النقل من لدن دولة الراشدين فيما بعد . احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية ، وتقييد الحديث مخافة ضياعه .

ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين أو تجريحهم للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه .

ثم كثر استخراج أحكام الواقعات من الكتاب والسُنَّة .

وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات فى الاستنباط والاستخراج والتنظير والقياس .

واحتاجت إلى علوم أخرى ، هى وسائل لها - مثل معرفة قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس ، والذب عن العقائد الإيمانية بالأدلة لكثرة البدع والإلحاد .

فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع ...

وأما العلوم العقلية (الفلسفية) فلم تظهر فى المِلّة إلا بعد أن تميَّز حملة العلم ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة » [1] .

وربما يُقال : إنَّ الذى استُحْدث فى الجماعة الإسلامية على هذا النحو ليس فكراً إسلامياً ، بل هو نقل ومأخَذ من الكتاب والسُنَّة ، والعلم الذى يمثله هو - لذلك - علم نقلى ، وليس علماً قام على إعمال الفكر .

ولكن الأمر ليس كذلك .

فنحن لم نرد من الفكر الإسلامى فكراً إنسانياً خالصاً ، وإنما أردناه مقروناً بهذا الوصف « الإسلامى » . وهو لذلك لا بد أن يتضمن نقلاً إسلامياً ، وفكراً إنسانياً مصاحِباً له .

وما يسمى بالعلوم النقلية لم يُقصد به خلوه من الفكر الناشط والتفكير الإنسانى ، وإنما قُصِدَ به - فحسب - عدم إطلاق الفكر .

ويوضح ذلك ابن خلدون فى مقدمته :

« اعلم أنَّ العلوم التى يخوض فيها البَشر ويتداولونها فى الأمصار ، تحصيلاً وتعليماً ، هى على صنفين :

١ - صنف طبيعى للإنسان يهتدى إليه بفكره .

٢ - وصنف نقلى يأخذه عمَّن وضعه .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٧ - ٤٧٩

والأول : هى العلوم الحكمية الفلسفية ، وهى التى يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدى بمداركه البَشرية إلى موضوعاتها ومسائلها ، وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب ، من حيث هو إنسان ذو فكر .

والثانى : هى العلوم النقلية الوضعية .

وهى كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى .

ولا مجال فيها للعقل إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول ، لأنَّ الجزئيات المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلى بمجرد وضعه (من الواضع الشرعى) ، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسى .

إلا أنَّ هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم فى الأصل وهو نقلى . فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه » [1] .

وإذن .. العلم النقلى فيه عمل عقلى وفكر إنسانى ، ولكنه مستند وراجع إلي « النقل » ولم يكن مطلقاً عنه كلية .

وابن خلدون يُعدِّد هذه العلوم النقلية فى الجماعة الإسلامية فيقول :

« وأصل هذه العلوم النقلية كلها هى الشرعيات من الكتاب والسُّنَّة ، التى هى مشروعة لنا من اللّه ورسوله ، وما يتعلق بذلك من العلوم التى تهيئها للإفادة ...

وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة ، لأن المكلَّف يجب عليه أن يعرف أحكام اللّه تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه .

وهى مأخوذة من الكتاب والسُّنَّة بالنص ، أو بالإجماع ، أو بالإلحاق .

١ - فلا بد من النظر فى الكتاب ببيان ألفاظه أولاً ، وهذا هو علم التفسير .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤

٢ - ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبى ﷺ الذى جاء به من عند اللّه ، واختلاف روايات القُرّاء فى قراءته . وهذا هو علم القراءات .

٣ - ثم بإسناد السُنّة إلى صاحبها ، والكلام فى الرواة الناقلين لها ، ومعرفة أحوالهم ، وعدالتهم ، ليقع الوثوق بأخبارهم بعلم ما يجب العمل بمقتضاه من ذلك . وهذه هى علوم الحديث .

٤ - ثم لا بد فى استنباط هذه الأحكام (أحكام اللّه المفروضة) فى أصولها من وجه قانونى يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط . وهذا هو علم أصول الفقه

٥ - وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام اللّه تعالى فى أفعال المكلّفين وهذا هو علم الفقه .

٦ - ثم إنّ التكاليف منها بدنى ، ومنها قلبى : وهو المختص بالإيمان ومايجب أن يُعتقد مما لا يُعتقد ، وهذا هو علم العقائد الإيمانية فى الذات والصفات ، وأمور الحشر ، والنعيم ، والعذاب ، والقَدَر .

والحِجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام .... » [١] .

هذه هى موضوعات الفكر الإسلامى الأصيل ، التى عالجها المسلمون وكانت مسرح نشاطهم الذهنى بالتعليل والاستخراج . فهى موضوعات نقلية أُحيطت بعمل عقلى للإنسان المسلم .

نشأ الفكر الإسلامى الأصيل ، وتطوّر ، وانتهى إلى مصير معيّن ، سيُفضى بنا الحديث إليه الآن .

دفع الإنسان المسلم إلى وضع التفسير « ففسّر القرآن أولاً بالرواية مستنداً إلى الآثار المنقولة عن السَلَف .

وهى معرفة الناسخ من المنسوخ ، وأسباب النزول ، ومقاصد الآى » [٢] ..

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٦٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٦٤

واشتمل التفسير بالرواية - كما يقول ابن خلدون - على « الغث والسمين والمقبول والمردود » [1] ...

وفسّره ثانية ، متأثراً فيه بلون معيّن من الحزبية المذهبية ، كتفسير « الكشاف » للزمخشري ، وتفسير « الكبريت الأحمر » لمحيى الدين بن عربى .

يمثل رأى « الكشاف » مذهب الاعتزال .

ويمثل « الكبريت الأحمر » رأى المتصوفة المتأخرة فى التجلى ، والحلول ، والوحدة فى الوجود .

ودفع الإنسان المسلم إلى وضع الفقه تحت تأثير أحداث الحياة السياسية والاجتماعية ، وتحت زيادة أمصار الإسلام ، ودخول غير المسلمين من أرباب المدنيات والحضارات السابقة فى الإسلام .

والفقة معرفة أحكام اللّه تعالى فى أفعال المكلّفين . وقد انقسمت مذاهبه المشتهرة بين جمهور المسلمين إلى ثلاثة مذاهب :

١ - إلى مذهب أهل الرأى والقياس : وهم أهل العراق ، لأن الحديث كان قليلاً بينهم ، فاستكثروا من القياس ، ومهروا فيه . ولذلك قيل فى شأنهم : أهل رأى ، وهم أبو حنيفة وأصحابه .

٢ - ومذهب أهل الحديث ، وهم أهل الحجاز . وإمامهم مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة .

ومن بعده محمد بن إدريس الشافعى ، الذى مزج فقه أهل المدينة بفقه العراق ، بعد أن ارتحل إليه .

٣ - ومذهب الظاهريين . وإمامهم داوود بن علىّ ، وابنه .

ومذهبهم يقوم على إنكار القياس وإبطال العمل به . « وجعلوا المدارك كلها منحصرة فى النصوص (القرآنية والسُنّية) والإجماع ، وردوا القياس الجلى والعلة المنصوصة إلى النص ، لأنّ النص على العلة - فى تقديرهم - نص على الحكم فى جميع مجالها » [2] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

٤ - وبجانب هذه المذاهب الفقهية التى عُرفت لجمهور المسلمين ، يوجد لأهل البيت - وهم الشيعة - فقه انفردوا به ، وأقاموه على أساس من الاعتقاد بعَصمة الإمام .

٥ - كما وُجِدَ فقه للخوارج ، راعوا فى استنباط الأحكام من النصوص موقفهم الخاص فى الإمامة والتزامات الإمام نحو الرعية ، وواجب الرعية نحو الإمام .

ودُفِعَ الإنسان المسلم - بجانب وضع الفقه - إلى وضع أُصول الفقه .

وهو النظر فى الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف .

واضطر إلى استحداثه لما يقوله ابن خلدون هنا : « واعلم أنَّ هذا الفن من الفنون المستحدَثة فى المِلّة . وكان السَلَف فى غنية عنه .

بما أنَّ استفادة المعانى من الألفاظ لا يُحتاج فيها إلى أزيد مما عندهم من الملكة اللسانية .

وأما القوانين التى يُحتاج إليها فى استفادة الأحكام خصوصاً فمنهم أخذ معظمها .

وأما الأسانيد فلم يكونوا يحتاجون إلى النظر فيها لقرب العصر ، وممارسة النقلة ، وخبرتهم بها .

« ثم لما انقرض السَلَف وذهب الصدرالأول ، وانقلبت العلوم كلها صناعة - كما قررنا من قبل - احتاج الفقهاء والمجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد ، لاستفادة الأحكام من الأدلة ، فكتبوها فناً قائماً برأسه ، سموه أُصول الفقه »[1] .

ودُفِعَ الإنسان المسلم - عندما زاحمت العقائد الأخرى العقيدة الإسلامية ، أو عندما حاولت أن تنال منها - إلى الدفاع عن عقيدة الإسلام ، فوضع علم الكلام .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٩

« .... فموضوع علم الكلام - عند أهله - إنما هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع ، من حيث يمكن أن يُستدل عليها بالأدلة العقلية .

فترُفع البدع ، وتزول الشكوك والشُبه عن تلك العقائد » [1] .

فالتفسير ، والفقه ، وأُصول الفقه ، وعلم الكلام تصوِّر اتجاهات الفكر الإسلامى الأصيل .

وقد تكوَّنت بدافع من الحاجة ، وتحت ظروف الحياة التى عاش فيها الإنسان المسلم ، فى مواطن مختلفة ، وفى أجيال متتالية .

تكوَّنت لتسد فراغاً فى حياة الجماعة الإسلامية ، أو لتدفع تهماً وريباً أُلقيَت فى وجه الإسلام .

وهى تمثل الفكر الإسلامى الأصيل ، لأنها منبثقة عن الإسلام ، باستخدام الإنسان المسلم تفكيره فى تفريعها عنه .

ومهما اختلف تفكير المسلمين فى تفريعها عن الإسلام فإنَّ اختلاف التفكير فيها لم يخرج بها جميعها عن الاعتدال فى اتصالها بالإسلام ، ولا عن التسامح بين المختلفين فى التفكير .

● مبدأ « الحركة » فى الفكر الإسلامى وآثاره :

وذلك ، لأنَّ الجميع أصدورا فى تفكيرهم عن مبدأ واحد ، هو : « مَن اجتهد وأصاب فله أجران ، ومَن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » .

فالكل مأجور ، لأنه يسعى إلى حق ، ويتذرع بالحيطة فى الوصول إلى هذا الحق .

الكل يستهدف أن يكون مسلماً فى إيمانه وعمله .

والاجتهاد كما يُعبِّر عن حيوية المسلم بإزاء الإسلام والحياة معاً .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨٩

أو كما يُعبِّر عن طاقة الملاءمة التى يحملها المسلم ليوفق دوماً بين الحياة التى يعيشها الآن وبعد الآن ، وبين الإسلام الذى يؤمن به - يُعبِّر من جانب آخر عما يصاحبه من روح اليُسر وروح الحرية فى التفكير ، وإن كانت حريّة محدودة .

فمبدأ الاجتهاد ، الذى قام عليه الفكر الإسلامى الأصيل ، مبدأ بناء ، ومبدأ حركة ، ومبدأ حرية ، وبالتالى مبدأ تيسير .

وفى الوقت نفسه مبدأ صفاء وتسامح .

لأن الخصومة النفسية التى تتبع الخصومة الفكرية الحادة لا مكان لها بين أرباب الاجتهاد الإسلامى . وإنما تقع عندما يُفرض على البعض الإلزام والاتباع ، أو يُحكم على بعض المذاهب بالتخلف وعدم المساواة .

وهكذا عندما ابتدأ الفكر الإسلامى الأصيل على أساس من الاجتهاد الخالص الحر ، نجد طابع هذا الفكر الصدق والانطلاق إلى الأمام .

ولا نكاد نلمس فيه تنابزاً ولا خصومة خارجة عن روح النظر السليم بين المختلفين فى موضوعاته وقضاياه .

ونجد المسلمين يومئذ أصحاب رأى ، وأصحاب حُجَّة ، وأصحاب علم ، فيما باشروه من ضروب التفكير المختلفة .

يقول ابن خلدون : « ثم إنَّ هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها فى هذه الملّة بما لا مزيد عليه ، وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التى ما فوقها غاية .

وهذبت الاصطلاحات ، ورتبت الفنون ، فجاءت من وراء الغاية فى الحُسن والتنميق .

وكان لكل فن رجال يُرجع إليهم فيه ، وأوضاع يستفاد منها التعليم » [1] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦٤

● تطور الفكر الإسلامى :

ولكن تطور الفكر الإسلامى الأصيل لم يستمر فى اتجاهه الذى سلكه أولاً ، ولم يستصحب معه مبدأ « الحركة » فى سيره ، وهو مبدأ الاجتهاد .

بل مال إلى اتجاه آخر ، وهو الفكر الأجنبى الذى اقتحم الجماعة الإسلامية على عهد المأمون ، وفرض نفسه على الحياة الفكرية الإسلامية يومئذ وبعدئذ .

ثم إلى جانب ذلك ، قلّت العناية بالاجتهاد ، وضاق نطاقه فى آفاق التفكير الإسلامى . وبهذا وذاك لم يصبح الإسلام وحده مصدر الفكر الإسلامى ، بل شاركه فيه - للأسف - هذا العنصر الدخيل ، كما أصبحت خطوات سيره بطيئة لا تكاد تُحَس .

وبمشاركة الفكر الأجنبى الإسلام نفسه فى تغذية الفكر الإسلامى ، لُقِّحَت الاتجاهات الفكرية والمذاهب المختلفة فى الجماعة الإسلامية ببواعث وغايات أخرى .

وأُضيف إلى تلك الاتجاهات الممهدة القديمة اتجاهات ، قَلّما تصادقها ، بل كثيراً ما تعارضها ، أو تناقضها .

عُرِفت فى الجماعة الإسلامية - بعد ترجمة الفكر الإغريقى الوثنى الفلسفى والفكر الشرقى الدينى الإشراقى ، والبرهمى - علوم المنطق والفلسفة الإلهية ، والطبيعية ، والتنسك الإشراقى .

واستُحْدِثَ فيها - منذ ذلك العهد أيضاً - علوم التصوف والسحر والطلسمات وأسرار الحروف .

وما نُقِلَ أو استُحْدِثَ من العلوم لم يبق منعزلاً فى الجماعة الإسلامية عن إتجاهات الفكر الأصيل فيها ، بل تسلّل إلى علوم الدين نفسها .

ويُجمل « ابن خلدون » وصف هذه العلوم - الأجنبية - وأثرها بقوله :

« وعكف عليها النُظّار من أهل الإسلام وحذقوا فنونها ، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول ،واختصوه بالرد والقبول

لوقوف الشُهرة عنده ، ودوّنوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على مَن تقدمهم فى هذه العلوم .

وكان من أكابرهم فى المِلّة أبو نصر الفارابى ، فى المائة الرابعة لعهد « سيف الدولة » .

وأبو على ابن سينا فى المشرق فى المائة الخامسة لعهد « نظام المُلك » من بنى بويه بأصبهان .

والقاضى أبو الوليد ابن رُشد ، والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، إلى آخرين بلغوا الغاية فى هذه العلوم ، واختُصّ هؤلاء بالشُهرة والذِكر .

واقتصر كثير على انتحال التعليم (الكيمياء) وما ينضاف إليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات .

ووقفت الشُهرة فى هذا المنتحل على مسلمة بن أحمد المجريطى من أهل الأندلس وتلاميذه .

ودخل على المِلّة من هذه العلوم وأهلها داخلة .

واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها وقلّدوا آراءها .

والذنب فى ذلك لمن ارتكبه ، ولو شاء الله ما فعلوه » [1] .

لم تنج آثار الفكر الإسلامى الأصيل ، وهى : التفسير ، والفقه ، وأصول الفقه ، وعلم الكلام ، من التأثر بهذه العلوم المترجَمة والمستحدَثة بعد نقلها إلى اللُغة العربية .

فتفسير « الكشاف » للزمخشرى - وهو معتزلى - تأثر بمنهج الاعتزال وبالفكر الاعتزالية .

ومدرسة الاعتزال فى تطورها - وبالأخص فى قضية « التوحيد » ومشكلة الصفات الإلهية - تأثرت بالفكر الأرسطى الأفلوطينى الحديث .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٤

وتفسير محيى الدين بن عربى تأثر - كما ذكرنا - بمذهب البراهمة فى وحدة الوجود ، وبفكرة الحلول عند المسيحيين .

هذا فضلاً عن تفسيرات ابن سينا ، أو إخوان الصفا ، أو غيرهم من الغُلاة ممن وقعوا تحت تأثير الفكر الأجنبى .

والفقه الإسلامى نافسه التصوف الإسلامى ، بعد ترجمة التنسك ، والصوفية الشرقية .

وبينما بقى الفقه فى مجال معرفة الأحكام الشرعية فى أفعال العباد ، عن طريق المدارك الإنسانية فى نصوص الشريعة ، اعتمد التصوف الإسلامى على الذوق فى المعرفة ، والمحاسبة على أعمال النفس ، بعد الإيمان .

وأصبحت أفعال الإنسان تُقاس بمقياسين :

مرة بمقياس الأحكام الفقهية فى العبادات والعادات والمعاملات .

ومرة بمقياس الذَوق والمحاسبة .

وابتدأت هذه المنافسة تتحولّ إلى خصومة .

يقول الغزالى - وهو من ممثلى المرحلة الوسطى فى تطور التصوف الإسلامى : « فأدلة الطريق هم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء .

وقد شغر منهم الزمان ، ولم يبق إلا المترسمون .

وأصبح كل واحد يعالج حظه مشغوفاً ، فصار يرى المعروف مُنكراً والمُنكر معروفاً .

حتى ظل علم الدين مندرساً ، ومنار الهُدى فى أقطار الأرض منطمساً .

ولقد خيلوا إلى الخلق أنّ لا علم إلا فتوى حكومة ، تستعين بها القضاة على فصل الخصام عند تهارش الطغام ، أو جدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام ، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة - وهو الرياضة النفسية - وما درج عليه السَلَف الصالح مما سماه الله سبحانه فى كتابه فقهاً وحكمة وعلماً وضياءً ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً ، وصار نسياً منسياً » [1] .

ولكنها - مع ذلك - خصومة لم تصل إلى عداوة وقطيعة .

لأن علم التصوف - حتى الآن - لم يبلغ نهايته فى التطور .

فأكثر عناصره إسلامية ، ولكنه تميّز بما يعرف : بمجاهدة النفس ومحاسبتها .

يصفه « ابن خلدون » فى هذه المرحلة بقوله : « فالروح العامل والمتصرف فى البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال ، وهى التى يميز بها الإنسان .

وبعضها ينشأ من بعض ، كما ينشأ العلم من الأدلة ، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذّذ به ، والنشاط عن الجمام ، والكسل عن الإعياء .

وكذلك « المريد » فى مجاهدته وعبادته ، لا بد وأن ينشأ له عن كل مجاهدة حال ، نتيجة تلك المجاهدة .

ولا يزال يترقى المريد من منام إلى مقام ، إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة ، التى هى الغاية المطلوبة للسعادة .

فالمريد لا بد له من الترقى فى هذه الأطوار .

وأصلها كلها الطاعة والإخلاص ، ويتقدمها الإيمان ويصاحبها ، وتنشأ عن هذه الأحوال والصفات نتائج وثمرات .

ثم تنشأ مقامات أخرى وأخرى إلى أن يبلغ السالك مقام التوحيد والعِرفان ...

---

(١) كتاب « إحياء علوم الدين » جـ ١ ص ٢

لأن حصول النتائج من الأعمال ضرورى ، وقصورها من الخلل فيها كذلك .

والمريد يجد ذلك (الخلل) بذوقه ، ويحاسب نفسه على أسبابه ، ولا يشاركهم فى ذلك إلا القليل من الناس .

لأن الغفلة عن هذا كأنها شاملة .

وغاية أهل العبادات (الفقه) إذا لم ينتهوا إلى هذا النوع ، أنهم يأتون بالطاعات مخلصة من نظر الفقه فى الإجزاء والامتثال .

وهؤلاء (المريدون) يبحثون عن نتائجها بالأذواق والمواجيد ، ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير أولاً .

فظهر أنَّ أصل طريقتهم (يعنى المريدين) محاسبة النفس على الأفعال والتروك .

والكلام فى هذه الأذواق والمواجيد التى تحصل عن المجاهدات ، ثم تستقر للمريد مقدماً ، ويترقى منها إلى غيرها .

ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم .

فلهذا اختُصَّ هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة الكلام فيه .

وصار علم الشريعة على صنفين :

- صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهى الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات .

- وصنف مخصوص بالقوم (المتصوفة) فى القيام بهذه المجاهدة ، ومحاسبة النفس عليها ، والكلام فى الأذواق والمواجيد العارضة فى طريقها ، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك .

فلما كُتبت العلوم ودُوِّنت ، وألَّف الفقهاء فى الفقه وأصول الفقه والكلام والتفسير وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم .

فمنهم مَن كتب فى الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء فى الأخذ والترك ، كما فعل القشيرى في كتاب « الرسالة » ، والسهروردى فى كتاب « عوارف المعارف » ... وأمثالهم .

وجمع الغزالى بين الأمرين (الفقه والتصوف) فى كتاب « الإحياء » .

فدوَّن فيه أحكام الورع والاقتداء ، ثم بيَّن آداب القوم وسُنَّتهم ، وشرح اصطلاحاتهم فى عبارتهم .

وصار علم التصوف فى الملَّة علماً مدوَّناً ، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط (أى فقهاً فقط) .

وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال ، كما وقع فى سائر العلوم التى دوِّنت بالكتابة من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك » [1] .

وعلم الكلام الإسلامى كان - من بين اتجاهات الفكر الإسلامى الأصيل - أشد تأثراً واشتباكاً بالمنقول إلى العربية من الفكر الأجنبى .

قال ابن خلدون : « ولما وضع المتأخرون فى علوم القوم ودوَّنوا فيها ، وردَّ عليهم الغزالى ما رَدَّ منها ، ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة - لعروضها فى مباحثهم - تشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات ومسائله بمسائلها ، وصارت كأنها فن واحد ...

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٩١ - ٣٩٢.

وصار علم الكلام مختلطاً بمسائل الحكمة ، وكتبه محشوة بها .

كأن الغرض من موضوعهما ومسائلهما واحد ، والتبس ذلك على الناس ، وهو غير صواب .

لأن مسائل « علم الكلام » إنما هى عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السَلَف ، من غير رجوع فيها إلى العقل ، ولا تعويل عليه ، لا بمعنى أنها لا تثبت إلا به .

فإنَّ العقل معزول عن الشرع وأنظاره .

وما تحدَّث فيه المتكلمون من إقامة الحُجَّج فليس بحثاً عن وجه الحق فيها .

فالتعديل بالدليل - لإثبات معلوم بعد أن لم يكن معلوماً - هو شأن الفلسفة ، أما منهج علم الكلام فهو التماس حُجَّة عقلية ، تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السَلَف ، وتدفع شُبَه أهل البدع ، وذلك بعد أن تُفرض هذه العقائد أولاً صحيحة بالأدلة النقلية ، كما تلقاها السَلَف واعتقدوها ، وبعيد ما بين المقامين » .

قال ابن خلدون : « وذلك أنَّ مدارك صاحب الشرع أوسع لاتساع نطاقه عن مدرك الأنظار العقلية .

فهى فوقها ومحيطة بها ، لاستمدادها من الأنوار الإلهية .

فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف .

فإذا هدانا الشرع إلى مدرك فينبغى أن نُقدِّمه على مداركنا ونثق به .

ولا ننظر فى تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه [1] .

بل نعتمد على ما أُمِرنا به اعتقاداً وعلماً ، ونسكت عما لم نفهم من ذلك ، ونفوِّضه إلى الشارع ونعز العقل عنه ...

وصار احتجاج أهل الكلام - بعد هذا الخلط - كأنه إنشاء لطلب الاعتداد بالدليل ، وليس الأمر كذلك .

بل إنما هو رد على الملحدين ، والمطلوب مفروض الصدق ومعلومه » [2] .

---

(١) ليس فى الشرع ما يعارض العقل ، ولكن المقصود ما تخفى على الأفكار حكمته ، مثل بعض أفعال الحج .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤١٣ - ٤١٤

وبهذا يشرح « ابن خلدون » مدى اختلاف طريق علماء الكلام بطريق الفلاسفة ، وأثر ذلك فى قيمة العقائد الدينية والتلبيس على الجهة التى تؤخذ منها وتعتَبر بها ، وهى القرآن والسُنَّة لا غير .

إنَّ الفكر الأجنبى الذى نُقِلَ إلى اللُغة العربية لم يقتصر أثره السلبى على توجيه تفسير القرآن وجهة أخرى تضاد وجهته الأصيلة ، ولا على منافسة علم التصوف للفقه ، ولا على خلط طريق المتكلمين بطريق الفلاسفة .

بل تجاوز ذلك كله ، وخلق فى الفقه اتجاهاً يناوىء الإسلام ، وخلق فى التصوف اتجاهاً مثله .

وذلك بما حمله هذا الفكر الدخيل من عناصر فلسفية وثنية ، وعناصر أخرى براهمية هندية .

هذا الفكر الدخيل حمل معه - فى شرح حقيقة الوجود - ثالوث الأفلاطونية الحديثة القائم على أنَّ : العلَّة الأولى ، أصل الوجود كله ، ثم العقل ، والنفس الكلية كموجودات ، تُعتبر الأصول والنماذج الرفيعة لكل ما عداها من بقية الموجودات .

حمل معه هذا الثالوث - بعد أن أقحمه من قبل الإسلام على المقدسات المسيحية - فأوجد فيها التثليث المعروف فيها باللّه ، وابن اللّه ، والروح القُدْس .

وهذا الفكر الأجنبى عن الإسلام حمل معه أيضاً وحدة الوجود الشاملة .

وهى أنَّ ما فى الكون - مع كثرته - تَجَلٍ لشىء واحد ، وتفصيل لموجود واحد ، هو العلة والأصل ، أو المعبود المقدس .

فهذا المعبود المقدس جوهر الوجود ، وحال فى هذه الكثرة اللانهائية من الكائنات المشاهَدة .

كما حمل معه ترتيب الموجودات فى انبثاقها أو فى صدورها عن طريق الفيض ، وكذا فى تقلصها وعودتها إلى الأصل الذى فاضت عنه .

وهذه الفكرة هى التى تُعرف بالجدل الصاعد ، والجدل النازل فى مدرسة الإسكندرية .

هذه الفكرة خلقت فى الفقه الشيعى اتجاه الغُلاة ، وهم مَن يُعرفون بالإسماعيلية ، أو الباطنية ، أو التعليمية ، أو الرافضة .

ووُجِد بعضهم باسم القرامطة ، وبعض آخر باسم الدروز أو الحاكميين فى « الشام » ، وبعض ثالث باسم الفاطميين أو العبيديين فى « مصر » ، وبعض رابع باسم أصحاب الداعى المطلق فى « اليمن » ، وبعض خامس باسم النزاريين فى « الهند » ، ومن زعمائهم أغا خان .... إلخ .

وفقه غُلاة الشيعة هؤلاء قام على الاعتقاد بالتثليث : اللّه ، ومحمد ، والإمام ، وعلى أنَّ الإمام حلّت فيه روح اللّه ، فهو معصوم عن الخطأ فى قوله وعمله ، وقوله حُجَّة فى التشريع لا تقل عن حِجِّية القرآن ، بل قد تفوقه أحياناً .

إذ بقوله تُنسخ بعض أحكام القرآن أو تُوقف .

وفقه الغلاة قام على قول الإمام أكثر من قيامه على نصوص القرآن .

ومتقدمو الشيعة من الإمامية والإثنى عشرية يعدون هؤلاء خارجين عن الإسلام وكفرة به ، كما تنظر إليهم بقية المسلمين هذه النظرة .

والذى حدث هنا حدث أيضاً فى التصوف .

فالتصوف الذى ذكرناه من قبل - وهو التصوف القائم على الطاعة والإيمان ، وعلى المجاهدة ومحاسبة النفس - تحوَّل - تحت تأثير هذه الفكر الدخيلة - إلى ما صار إليه إتجاه الغُلاة من الشيعة ، فهم يقولون بالتثليث أيضاً ، ثالوثهم : اللّه ، ومحمد ، و « القُطب » .

وفى القُطب حلّت روح اللّه ، فهو معصوم ، ساقطة عنه التكاليف ، واجب التوسل به ، لأنه مركز إنقاذ البَشرية .

وزاد التصوف فى التأثر بالفكر الدخيلة عن إتجاه غُلاة الشيعة ، بأن اعتقد بعض المتصوفة المتأخرين بالوحدة الشاملة ، وبالتجلى .

على معنى أنَّ هذه الكائنات هى عين اللّه ، والتعبير عنه : « كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفونى » .

يقول « ابن خلدون » فى وصف هؤلاء المتأخرين من المتصوفة :

« وكذا جاء المتأخرون من غُلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجيد أيضاً فخلطوا مسائل الفنيين بفنهم ، وجعلوا الكلام واحداً فيها . مثل كلامهم فى النبوات ، والاتحاد ، والحلول ، والوحدة ، وغير ذلك » [1] .

كما يقول : « ثم إنَّ قوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم إلى كشف الحجاب والمدارك التى وراءه .

واختلفت طرق الرياضة عندهم فى ذلك ، باختلاف تعليمهم فى إماتة القوى الحسية ، وتغذية الروح العاقل بالذِكر ، حتى يحصل للنفس إدراكها الذى لها من ذاتها ، بتمام نشوتها وتغذيتها .

فإذا حصل ذلك زعموا أنَّ الوجود قد انحصر فى مداركها حينئذ ، وأنهم كشفوا ذوات الوجود ، وتصوَّروا حقائقها كلها من العرش إلى الفرش ....

وقصرت مدارك مَن لم يشاركهم فى طريقهم عن فهم أذواقهم ومواجيدهم فى ذلك .

وأهل الفتيا ، بين منكر عليهم ومُسلِّم لهم .

وليس البرهان والدليل بنافع فى هذا الطريق رداً أو قبولاً ، إذ هى - بزعمهم - من قبيل الوجدانيات .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٤١

وربما قصد بعض المصنفين بيان مذاهبهم فى كشف الوجود ، وترتيب حقائقه ، فأتى بالأغمض فالأغمض بالنسبة لأهل النظر (الدليل) والاصطلاحات والعلوم .

كما فعل الفرغانى شارح قصيدة ابن الفارض فى الديباجة التى كتبها فى صدر ذلك الشرح .

فإنه ذكر فى صدور الوجود عن الفاعل ، وترتيبه : أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدانية ، التى هى مظهر الأحدية .

وهما معاً صادران عن الذات الكريمة ، التى هى عين الوحدة لا غير ، ويسمون هذا الصدور بالتجلى .

وأول مراتب التجليات عندهم : تجلى الذات على نفسه .

وهو يتضمن الكمال وإفاضة الإيجاد والظهور . لقوله فى الحديث الذى يتناقلونه : « كنتُ كنزاً مخفياً ، فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلق ليعرفونى » [1].

وهذا الكمال فى الإيجاد المتنزل فى الوجود وتفصيل الحقائق - وهو الوجود الحق عندهم - يأخذ هذا النسق :

١ - عالَم المعانى والحضرة الكمالية .

٢ - والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق الصفات ، واللوح ، والقلم ، وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين .

٣ - والكُمَّل من أهل المِلّة المحمدية .

وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية .

وتصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى فى الحضرة البهائية ، وهى :

---

(١) هذا الحديث الشائع بين الصوفية لا أصل له ، والموضوع كله غريب على الإسلام مقطوع الصلة بأركانه ونوافله .

١ - مرتبة المثال ، ثم العرش ، ثم الكرسى ، ثم الأفلاك .

٢ - ثم عالَم العناصر .

٣ - ثم عالَم التركيب ، هذا فى عالَم الرتق . فإذا تجلت فهى فى عالَم الفتق . ﴿ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ (١) .

ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلى والمظاهر والحضرات .

وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه ، لغموضه ، وبُعد ما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان وصاحب الدليل .

وكذا ذهب آخرون منهم إلى القول بالوحدة وتفاريعها .

وهو رأى أقرب من الأول فى تعقله وتفاريعه .

ويزعمون فيه : أنَّ الوجود له قُوَى ، فى تفاصيله ، بها كانت حقائق الموجودات ، وصورها وموادها .

والعناصر إنما كانت بما فيها من القُوَى . وكذلك مادته ، لها فى نفسها قوة بها كان وجودها .

ثم إنَّ المركبات فيها تلك القُوَى متضمنة فى القوة التى كان بها التركيب :

كالقوة المعدنية فيها قوى العناصر بهيولاها وزيادة القوة المعدنية .

ثم القُوَى الحيوانية تتضمن القوة المعدنية وزيادة قوتها فى نفسها .

وكذلك القوة الإنشائية مع الحيوانية .

ثم الفلك يتضمن القوة الإنسانية وزيادة ، وكذلك الذوات الروحانية .

والقوة الجامعة للكل من غير تفصيل هى القوة الإلهية التى انبثت فى جميع الموجودات كلية وجزئية ، وجمعتها وأحاطت بها من كل وجه ، لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ، ولا من جهة الصورة ولا من جهة المادة .

---

(١) الأنبياء : ٣٠.

فالكل واحد ، وهو نفس الذات الإلهية . وهى الحقيقة واحدة بسيطة ، والاعتبار هو المفصِّل لها .

كالإنسانية مع الحيوانية .

ألا ترى أنها (الحيوانية) مندرجة فيها وكائنة بكونها .

فتارة يمثلونها بالجنس مع النوع فى كل موجود كما ذكرناه .

وتارة بالكل مع الجزء على طريقة المثال .

وهم فى هذا يفرون من التركيب والكثرة بوجه من الوجوه .

وإنما أوجبها عندهم الوهم والخيال .

والذى يظهر من كلام ابن دهقان فى تقرير هذا المذهب أنَّ حقيقة ما يقولونه فى الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء فى الألوان من أن وجودها مشروط بالضوء . فإذا عُدِمَ الضوء لم تكن الألوان موجودة بوجه .

وكذا عندهم الموجودات المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسى ، بل الموجودات المعقولة والمتوهمة أيضاً مشروطة بوجود المدرك العقلى .

فإذن الوجود المفضَّل كله مشروط بوجود المدرك البَشرى ...

ثم إنَّ هؤلاء المتأخرين من المتصوفة ، المتكلمين فى الكشف وفيما وراء الحس ، توغلوا فى ذلك .

فذهب الكثير منهم إلى الحلول ، والوحدة ، كما أشرنا إليه ، وملأوا الصحف منه . مثل « الهروى » فى كتاب « المقامات » ، وغيره .

وتبعهم ابن عربى ، وابن سبعين ، وتلاميذهما : ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلى فى قصائدهم .

وكان سَلَفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة ، الدائنين أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة ، وهو ما لم يعرف لأولهم .

فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر ، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم .

وظهر فى كلام المتصوفة القول بالقُطب ، ومعناه رأس العارفين .

يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد فى مقامه فى المعرفة ، حتى يقبضه الله ، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان ...

ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القُطب ، كما قال الشيعة فى النقباء » [1] .

وازداد المتصوفة تأثراً بالعلوم المنقولة من الخارج . فتأثروا - زيادة عن تأثرهم بالفكر الأفلوطينى الحديث والبرهمى الهندى - بفكر الكلدانيين والآشوريين فى بابل .

تأثروا بفن الطلسمات ، وهو العلم بكيفيات واستعدادات تقتدر النفوس البَشرية بها على التأثير فى عالم العناصر ، بمعين من الأمور السماوية .

وأحدثوا علماً سُمِّىَ بعلم أسرار الحروف .

وحدث هذا العلم فى المِلّة بعد صدر منها ، وعند ظهور الغُلاة من المتصوفة ، وجنوحهم إلى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات فى عالم العناصر ، وتدوين الكتب والاصطلاحات ، ومزاعمهم فى تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه .

« وزعموا أنَّ الكمال الأسمائى مظاهره أرواح الأفلاك والكواكب .

وأن طبائع الحروف وأسرارها سارية فى الأسماء .

فهى سارية فى الأكوان على هذا النظام .

والأكوان لون من الإبداع الأول تنتقل - هذه الطبائع - فى أطواره ، وتُعرب عن أسراره .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٢ - ٣٩٥ وأحاديث الصوفية فى هذه الموضوعات تدور بين اللغو والإفك ولا علاقة له بالجو العلمى أصلاً ، ومن المؤسف أن يأخذ هذا الكلام مكاناً فى ثقافتنا التقليدية .

فحدث لذلك علم أسرار الحروف ... تعددت فيه تآليف البونى وابن عربى ، وغيرهما ...

« وحاصله عندهم وثمرته تصرف النفوس الربانية فى عالَم الطبيعة بالأسماء الحسنى والكلمات الإلهية الناشئة عن الحروف بالأسرار ، والسارية فى الأكوان ...

وإنما مستندهم فيه الذوق والكشف .

قال البونى فى كتابه « الأنماط » : ولا تظن أنَّ سر الحروف مما يُتوصل إليه بالقياس العقلى . وإنما هو بطريق المشاهدة ، والتوفيق الإلهى ....

وتصرف أصحاب الأسماء (في الطبيعة) إنما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف من النور الإلهى والإمداد الربانى ، فيُسخِّر الطبيعة لذلك طائعة ، غير مستعصية ، ولا يحتاج إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها » [1] .

ومن طريق ثقافة بابل القديمة نُقِلَ أيضاً السحر إلى اللُّغة العربية ، وعُرِفَ بالميل إليه ، وبالتدوين فيه ، بعض علماء المسلمين ، ممن لم ينخرطوا فى سلك التصوف . قال ابن خلدون : « ... ولم يُترجَم لنا من كتبهم - يعنى أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وأهل مصر من القبط - فيها (فى علم السحر والطلسمات) إلا القليل ، مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل .

« فأخذ الناس عنهم هذا العلم وافتنوا فيه ...

ثم ظهر بالشرق « جابر بن حيان » كبير السحرة فى هذه المِلّة ، فتصفح كتب القوم واستخرج منها الصناعة (الكيمياء) .. ووضع فيها وفى غيرها التآليف . وأكثر الكلام فيها وفى صناعة السيمياء ، لأنها من توابعها . ولأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية ، لا بالصناعة العملية فهو من قبيل السحر ...

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤٢٣ وهذا الكلام كله تصوير لخرافات لفقها الإيغال فى الوهم ، والإسلام منها برىء ، والمشتغلون بها دجالون .

ثم جاء « مسلمة بن أحمد المجريطى » ، إمام أهل الأندلس فى التعاليم (العلوم الرياضية) والسحريات فلخّص جميع تلك الكتب ، وهذّبها ، وجمع طرقها فى كتابه الذى سماه « غاية الحكيم » ، ولم يكتب أحد فى هذا العلم بعده » (١) .

* * *

• وقوف مبدأ « الحركة » فى الفكر الإسلامى الأصيل :

هذا ما انتهى إليه تأثير علوم الحكمة المنقولة ، على اتجاهات الفكر الإسلامى الأصيل .

وبجانب هذا المصير الذى انتهت إليه بعض اتجاهاته ، نلحظ أنه قد وقع فى طريق هذا الفكر ما جعله يعجز عن الاستمرار فى الحركة البنائية ، التى بدأها بداية أصيلة أول ما درج فى الحياة ، والتى بلغت أوجها عند نهاية القرن الثالث الهجرى .

أصيب الفكر الإسلامى الأصيل بالجمود .

مُنِعَ « الاجتهاد » فى استنباط الأحكام وفهم النصوص .

وانتهى الفقه الإسلامى فى رأى الجمهور - عدا مذاهب أهل البيت ، والخوارج - إلى التقليد .

وصار الفقه لا يعدو عمل التابع ، داخل إطار المذهب المقلَّد له .

وصار التقليد إلى مذهب بعينه ، لا يتجاوز إلى غيره .

« ولما كثر تشعب الاصطلاحات فى العلوم ، وعاق القصور عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد ، ولما خُشِيَ من إسناده إلى غير أهله ومَن لا يوثق برأيه ودينه ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٤١٤ - ٤١٥ ، ذلك والكيمياء الآن علم وطيد المكانة يقوم على الملاحظة والتجربة ، أما فى القديم ، فكان جهداً باطلاً حول إمكان تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب .

صرّحوا بالعجز والإعواز ، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء (الأئمة الأربعة فى فقة السُنّة) .

وحظروا أن يُتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب . أى لا يجوز للمسلم إتباع أكثر من مذهب (!) .

ولم يبق إلا نقل مذاهبهم ، وعمل كل مقلد بمذهب مَن قلده منهم ، بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية .

ولا محصول للفقه غير هذا ، ومدعى الاجتهاد لهذا العهد (فى المائة السابعة) مردود على عقبه ، مهجور تقليده » [1] .

وبمنع تداول التقليد بين المذاهب اشتد الفاصل بينها ، واتسعت الفجوة - بالتالى - بين المقلّدين بكل مذهب منها .

« ولما صار مذهب كل إمام علماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ، ولم يكن لهم سبيل إلى الاجتهاد والقياس ، احتاجوا إلى تنظير المسائل فى الإلحاق ، وتفريقها عند الاشتباه ، بعد الاستناد إلى الأصول المقرّرة من مذهب إمامهم .

وصار ذلك كله يحتاج إلى مَلكة راسخة ، يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير أو التفرقة ، وإتباع مذهب إمامهم فيهما ما استطاعوا .

وهذه الملكة ، هى « علم الفقه » لهذا العهد » [2] .

وإذا تحول الإجتهاد إلى تقليد ، وتحوّلت مَلكة الاستنباط والاستخراج إلى التأسى واتباع ما وضعه إمام المذهب ، بل إذا حيل بين المقلّدين وبين الاختيار فى التقليد ، أو بين التنقل فى التبعية - فالمنتظر أن تصبح المذاهب الفقهية أشبه بالديانات المختلفة ، فى التعصب لها والجدل حول قيمها بين الأتباع .

بل قد أصبح هذا المنتظر حقيقة واقعة واستُحدث فى الجماعة الإسلامية ما يسمى بعلم « الخلافيات » .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٧٤

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥

وقوام هذا العلم محاجة أصحاب كل مذهب وأتباعه لأصحاب المذهب الآخر وأتباعه ، فى قيمة المذهب ووجوب تبعيته .

قال ابن خلدون : « فاعلم أنَّ الفقه المستنبَط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين ، باختلاف مداركهم وأنظارهم ، خلافاً لا بد من وقوعه ..

واتسع ذلك فى المِلّة إتساعاً عظيماً .

وكان للمقلِّدين مَن شاءوا منهم .

ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار ، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم ، اقتصر الناس على تقليدهم ، ومنعوا من تقليد سواهم ، لذهاب الاجتهاد وصعوبته .

ولما تشعبت العلوم التى هى مواده باتصال الزمان وافتقاد مَن يقوم على سوى هذه المذاهب الأربعة وأُقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول المِلّة ، وأُجْرِىَ الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها ، مجرى الخلاف فى النصوص الشرعية ، والأصول الفقهية ، وجرت بينهم المناظرات فى تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجرى على أُصول صحيحة وطرائق قويمة ، يحتج بها كل على مذهبه الذى قلّده وتمسك به ... كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات .

وقد جمع ابن الساعاتى فى مختصره فى أصول الفقه جميع ما ينبنى عليها من الفقه الخلافى ، مدرجاً فى كل مسألة ما ينبنى عليها من الخلافيات » [1] .

* * *

لقد ابتدأ الفكر الإسلامى بين القسمات ، واضح السِمات بعد ظهور الإسلام واستقرار الجماعة الإسلامية وقيام دولتها وتميز حضارتها .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٨١

واتجه هذا الفكر اتجاهاً أصيلاً يستوحى فيه القرآن والسُنَّة الصحيحة ، بعد أن تطلب منه الحياة وظروفها المتجددة أن يستوحى ، ويستهدى .

فكان يسير بنصوص إسلامه ، وبهداية عقله البَشرى معاً .

وكلما اتسعت رقعة الحياة الإسلامية ، وتعددت مطالبها ، وازدادت مواجهة المسلمين لحضارات الآخرين استجاب الفكر الإسلامى لمقتضيات الواقع .

كان سَلَفنا الأول على هذا النحو أساس تفكيرهم الإسلام ، وإعمال الفكر أو « الاجتهاد » .

وبذلك أنشأوا فكراً إسلامياً خاصاً بهم ، وبنوا فيه ، وبلغوا فى البناء القمة ، كماً وكيفاً .

لكن لم تكن كل الدوافع لهم فى إنشائه ، وفى البناء عليه ، هى مقتضيات الواقع فى حياتهم وحدها .

بل وُجِدَ بين هذه الدوافع ، عوامل أخرى تتصل بالرغبات والآمال ، وُجِدَت تيارات السياسة ، ومشكلات « الرياسة » ، ونزل أمرها فى مجال الفكر الإسلامى ، بجانب مقتضيات الحياة الضرورية .

ثم إنَّ اضطراب نظم الحكم فى البلاد الإسلامية كان بعيد المدى للأسف فى إثارة الفوضى الثقافية . وهكذا نرى أنه :

عن طلب المعونة من الفكر الأجنبى مرة ، وعن كثرة الإلحاح فى عرضه مرة أخرى ، نُقِلَ هذا الفكر إلى اللغة العربية ، ومارسه المسلمون .

وكان له من التأثير على الفكر الإسلامى الأصيل ما رأينا من :

١ - اضطراب فى تصوير أهداف القرآن الكريم وأساليب تفسيره .

٢ - ومن اضطراب فى فهم السُنَّة ومكانتها ، ووضع بعض الأحاديث منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

٣ - ومن الخروج بعلم الكلام الإسلامى عن غايته المقرَّرة له .

٤ - ومن انسلاخ بعض المذاهب الفقهية والاعتقادية - مثل الشيعة الغُلاة وبعض المتصوفة - عن دائرة الإسلام وعقائده .

٥ - ومن خلق منافس للفقه ، ثم معاد له وللإسلام جملة ، وهو تصوف الغُلاة .

٦ - ومن خلق علوم أخرى فى الجماعة الإسلامية ، كعلوم السحر والطلمسات وأسرار الحروف ، من شأنها أن تصرف الناس عن الحق وتعاليمه وتجعلهم يؤمنون بخرافات لا أصل لها ، وزاد الطين بلّة أنَّ هذا الفكر الإسلامى الأصيل ظل ينحدر إلى أن خرج عن أصالته ، وأوهى الركود الأدبى الأساس الذى قام عليه :

- أوهى الرجوع إلى النصوص الشرعية ، واستعاض عنها بكلام أئمة المذاهب .

- وألغى مبدأ الحركة فى الفكر وهو « الاجتهاد » واستعاض عنه بالتقليد .

تعطل إذن الفكر الإسلامى وجمد ، ونُسِىَ القرآن ، ونُسِيَت السُنَّة . !!

وانتقل التقويم إلى المذاهب وإلى كتاب الإنسان بعد كتاب الله .

وشارك الإنسان الله فى عصمة قوله .

وشاعت خرافات وأوهام لا حصر لها فى البيئة الإسلامية عرَّضتها بعد قليل للانهيار .

ولم يبق الإسلام دين المبادىء التى يُعرف بها الأشخاص ، إذ أصبح التقديس للأشخاص الذين تُعرف بهم المبادىء .

ولم يبق دين التوحيد النقى ، إذ أصبح دين الوحدة الشاملة أو الاتحاد ، أو الشفعاء والوسطاء .

ولم يبق دين الجماعة كلها ، إذ أصبحت الأمة طوائف ذات مذاهب وعقائد شتَّى .

ثم ضعفت الدولة وانهارت ، وسقطت سُلطتها العامة على الأقاليم وتقسمت إلى دويلات .

وتفرَّقوا شيعاً فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر !!

فلما ضعفت الجماعة الإسلامية فى تفكيرها ، وفى إيمانها وفى روابطها ، وفى وحدتها ، ضعفاً أغرى بها الغُزاة من الخارج ، ماتت فيها روح المقاومة فاقتحمها التتار فى الشرق ، وغزاها الصليبيون من الغرب .

تلك كانت حالها فى القرن السابع الهجرى وما قبله .

لكن هل خلت الأرض من قائم لله بحُجَّة ؟ كلا ! فما من عصر إلا وكان فيه مَن يهيب بالجائر عن الطريق أن يرشد ..

وقد وُجِدَ فى أُمتنا مَن تعقب الانحراف عندما نجم ، ومَن قاومه بعد ما نما ، ومَن خاصمه بعنف وحدة حتى رد للحق مكانته وأعلى رايته ، وتفصيل هذا الجهاد العلمى المضنى طويل .

وأحسن ما نوصى به لاستبانة معالمه قراءة كتاب « رجال الفكر والدعوة فى الإسلام » للعلاَّمة أبى الحسن الندوى .. سدَّد الله خُطاه ونَفَّع به .

* * *